

علم الكلام الإباضي

النشأة والتطور والتأثير

يقول مؤرّخو علم الكلام الإسلامي، إنّ مشكلتي الإيمان والقَدْر وقعتا في أصل النشأة. بيد أنّ هذا الاستنتاج لا يكفي لتعليل ظهور هذا العلم، كما لا يكفي لتعليل تطوراتها، بما في ذلك سواد اتجاهات مختلفة ضمن الإسلام في مسائل العقيدة وما اتّصل بها.

وقد كان هناك من قال إنّ "إكمال" هذه الأسباب يقتضي قرّنها بشرطها السياسي، فقد قال الشهرستاني (- 548هـ) إنه ما سئل سيفاً في الإسلام، كما سئل على الإمامة. وقد بدأ التكون ظاهراً لدى "جماعة المسلمين" كما سمّوا أنفسهم تحت شعار "لا حُكْمَ إلاّ لله" وفيه ربطٌ للنظام السياسي بالدين. إنّما مرةً أخرى فإنّ هذا "الإكمال" لا يكفي إذا لاحظنا التسمية بجماعة المسلمين، بمعنى الحرص على الوحدة، ثم الاتجاه التأويلي والعقلاني والذي ظهر في التوجهات العقديّة منذ فترة مبكرة.

وهكذا نرى أنّ الكثير من وجوه الغموض يحيط بنشأة الجماعة أو الجماعات الأولى للمحكّمة، كما يحيط بالتطورات المبكرة في علم العقيدة عندهم. وهناك أمورٌ ثلاثة شديدة الأهمية؛ أولها التأثير الكبير والتشابك (وليس الاشتباك) بينهم وبين المعتزلة (وهم أولى الفرق الكلامية في الإسلام) وبالتالي تأثيرهم البارز في مسائل الاعتقاد والتأويل على مدى القرون اللاحقة. وثانيها: ذلك الاقتران بين العقيدة والفقّه أو التفكير الفقهي عند الإباضية، والذي لم يَحُلْ دون إنتاج فقهيّ خصبٍ عبر العصور. وربما كان بين أسباب الحيوية الفقهيّة (إلى جانب الحيوية العقديّة) نجاح الإباضية في إقامة الدول منذ القرن الثاني الهجري وبالمشرق والمغرب. وثالث تلك الأمور الانتشار الإباضي الكبير في المشرق والمغرب ومنطقة المحيط الهندي والبحر المتوسط.

لقد كانت هذه المسائل كلّها وبخاصّة ما تعلق منها بالاتجاهات العقديّة والفكرية موضع بحثٍ في المؤتمر الذي انعقد (بنابولي أو .. الخ) ضمن نشاطات سلسلة المؤتمرات عن الإباضية في الأقسام المتخصّصة بجامعات العالم الكبرى. وهو المؤتمر الذي شارك فيه دارسون كبار للإباضية ولعلم الكلام الإسلامي، وشبان ناشئون مجتهدون من الغرب ومن عالم العرب والمسلمين. وقد كان من بين مقدّمي البحوث مختصّون مهتمون من سلطنة عُمان، ومن تونس والجزائر.

عندما بدأنا التفكير بمؤتمرات الإباضية على المستوى العالمي قبل خمس سنواتٍ أو ست، ما كنا نحيط بأبعاد الاهتمام في الدراسات الاستشراقية والتاريخية والاستراتيجية. وقد اكتشفنا أنّ جيل الكبار من المهتمين هو الثالث، وأنّ هناك جيلاً رابعاً يظهر في مطلع القرن الحادي والعشرين. وهذا الجيل يحمل أسئلةً أخرى ومناهج أخرى، ويشارك فيه شبابٌ باحثين، والآخرين الذين عقدنا علاقاتٍ بهم من خلال الندوات الفقهية، ومجلة التسامح/التفاهم، والمواسم والزيارات الثقافية. وقد ظهر التجديد بوضوح في المؤتمر الخاصّ بالعقيدة وعلم الكلام. فقد استمعتُ قبل عامين إلى بعض المحاضرات، لكنني وأنا أعيذُ القراءة من أجل التقديم، أدركُ الجديد والأصيل، وجلاء الغموض، واكتشاف البديع في علم الكلام الإباضي بعد القرنين الخامس والسادس للهجرة. ولا شكّ أنّ ذلك يعود للطرائق والمناهج الجديدة، والنصوص التي تزايدت معرفتنا بها؛ إضافةً لشجاعة كبار الدارسين وحيويتهم واستمرارهم في التماس الجديد والمتقدم.

أشكر جامعة نابولي والبروفسورة ايرسيليا فرنسيسكا على الاستضافة. كما أشكر الأستاذ غاوبه والأستاذ عبد الرحمن السالمي على الإعداد والمتابعة بحيث تظهر البحوث بهذه الخلّة القشبية. والشكر في الأصل والفرع للدارسين المشاركين الذين تحملوا مشقات البحث والسفر. وبالله التوفيق وهو الهادي إلى أقوم السُّبُل.